صور من الحياة :

جـــزاء . . .

للأستاذ كامل محمود حبيب

آه ، إن فى الإنسان دوافع ترابية إن سيطرت عليه نزلت به عن معانى الإنسانية !

قال لى صاحبى : وانفلتّ من لدن أخى بعد أن سخر من ضعفى وسلبنى مالى ... انفلت من لدنه وفى يدى جنيهات ، وفى قلبى لوعة ، وفى عينى عبرة ، وأحسست بقلبى يحتدم غيظاً وكمداً ، وشعرت بفؤادى ينشق أسى وألماً .

ولبثنى الشيطان ، وسيطر علىّ الأرق ، وتناهبتنى الهموم ، فقضيت ليلتى أتقلب فى آراسى وشجونى والشيطان إلى جانبى ما يبرح ينفث فىّ سموماً شيطانية ويسوّل لى أمراً ، وأنا ألقى السمع إلى كلماته ، أطمئن إلى حديثه حيناً ، وأفزع عنه حيناً ، وبين يدىّ جنيهاتى أقلبها ذات الشمال وذات اليمين وفى قلبى قلق واضطراب ، وفى رأسى خواطر سود ما تنقشع ... ولكن أخى هو أخى ، ضمنى وإياه تاريخ سنوات عجاف ، ولطالما استشعرت منه العطف والحنان والتضحية .

وقال لى الشيطان : لقد غالك أخوك وأنت فى مرضك تهفو إلى شفقته وتركن إلى رحمته ، غالك لتصبح فقيراً ترى أبناءك يحسون لذع الفاقة ومرارة العوز وقسوة الحرمان على حين يرفل أبناؤه فى السعة ويتقلبون فى النعيم .

لا عجب ، فهو رجل ترابى العقل ، أرضى العاطفة ، نشر حواليك شباك الجشع — على حين غفلة منك — ليستلبك من مالك ، وأنت فى سقامك لا تستطيع أن تذود عن نفسك بعض طمعه ولا أن تناقشه الرأى ، فاستسلمت — على الرغم منك — فى فتور وضعف . لقد عبث بالأوراق فى خسة ، ورتب الحساب على نسق أراده هو ليبلغ غاية يتلظى الشره من ثناياها منذ أن شطر الدار شطرين ، وأرهقك بالدين من بعد منه ، ثم صدمك بفكرة بيع الدكان ليرغمك على أن تنزل له من حصتك بثمن بخس . تلك أمور سوّلها إرادة طينية تغلغلت فى نفسه ليستولى على مالك فى غير حق . فأنت عاجز الهمة ، قاتر المروءة ، إن لم تدفع ما أصابك من ظلم وطغيان . ستراه — بعد أيام — يرفل — هو وصغاره — فى الحرير والدمقس ويستمتع بأطايب الطعام والفاكهة ، على حين لا تجد أنت إلا صبابة من مال لا تنفى من عرى ولا تسمن من جوع . فلا تقعد عن أن تغمد هذا الخنجر فى صدره ، أو تصوب فوهة ذاك المسدس إلى قلبه . تسلل إليه فى سكون الليل ، تحت ستر الظلام ، ثم استل روحه من بين جنبيه وارتد إلى فراشك هادئ البال ، ساكن الجأش ، فتكون قد انتقمت لكرامتك ومالك . وإلا فأنت عاجز الهمة قاتر المروءة .

وظل الشيطان يوقع لحن شيطانيته على أوتار أذنى فى دربة ولباقة ، حتى أوشكت أن ألقى إليه السلم فأتردى فى الهاوية ، وظللت أنا أضطرب فى مضلات لا أهتدى ولا يمضى لى جفن ، فما سكنت جائشة نفسى إلا حين سمعت صوت المؤذن ينادى فى الفجر : « الله أكبر ، الله أكبر » ... فاستيقظت الروحانية فى قلبى ، وقمت فى تراخ وكسل أدس جنيهاتى فى درج مكتبى ، ثم انطلقت صوب المسجد عسى أن أجد هناك راحة النفس وهدوء الضمير ، أو أن أنفض عنى الخواطر الشيطانية وهى مازالت تتدفق فى قلبى منذ الغسق . وهناك — فى المسجد — أحسست بالسكينة والأمن حين ألقيت عن كاهلى متاعبى وشجونى . وكنت كلما سمعت « الله أكبر » شعرت بروح المسجد تنشر قلبى نوراً وهدوءاً ، وتملأ جوانحى ثقة وإيماناً ، وتنفث فى روحى الحياة والنشاط . وللمسجد فى قلب المؤمن معان سماوية تسمو به عن النوازع الأرضية الوضيعة ، وترتفع به عن شواغل المادة الحقيرة . وسكنت إلى المسجد فجلست فى ناحية منه استلهم وحيه السماوى وأجتلى نوره الفياض ، فما أنفت إلا حين ملأ نور الصبح صحن الجامع .

ورجعت إلى دارى بهدأى الجهد والإعياء مما قاسيت فى ليلتى وأنا مؤرق الجفن ، مضطرب البال ، مشتت الذهن ، فبدا علىّ الشحوب والذبول . ورأت زوجى عذاب نفسى مسطوراً على جبينى فنظرت إلىّ فى ذهول وشفقة ، ثم افتقد لسانها فما استطاعت أن تحدثنى بأمر ولا أن تشير برأى ، وخشيت أن تقول كلاماً ينكأ جرحى ويدمى قلبى وتركنى إلى العلة التى برئت منها منذ أيام ، فأمسكت بالرغم منها .

وقضيت يومي أضطرب في أنحاء القرية لا أستقر ، أريد أن أفر من خواطري ، وأن أهرب من أخيلتي ، فلا أستطيع إلى ذلك سبيلا ، وظلت هي تلاحقني وتتشبث بي حتى رجعت إلى داري عند الأصيل . وألفيت زوجي تختلج اختلاج مكروب أرمضه الأسى ، وفي عينيها أثر البكاء والضنى .

وعزّ عليّ أن أحملها بعض وزري ، أو أن أشركها في هذا البلاء ، فأطفئ فيها جذوة الشباب وأخمد فيها نور الحياة . وعزّ عليّ أن تتساقط أسفاً وحسرة ، وأنا قد لمست فيها العطف والحنان في ساعة العسرة ، فجلست إلى جانبها أحدثها : « ما بك ؟ » قالت : « لا شيء ، إلا أن أراك تأسى على أمر تافه ضئيل » . قلت : « لقد غالني أخي فسلبني مالي » . قالت : « لا بأس عليك ، فهو أخوك الأكبر ، وهو منك بمنزلة الأب ، وله عليك ألف حق وحق » . قلت : « أفيذرني وحيداً عاجزاً يلتهمني الألم وتعصرني الفاقة » . قالت : « آه ، إن في السماء أموراً غُيِّبتْ عنا لتكون بلاء للصابرين ! وما أقسى فقر النفس ! » . قالت : « هذه فلسفة مفنة » . قالت : « ولكنها فلسفة روحانية تذر النفس هادئة مطمئنة ، فكم أخذت من أخيك بالأمس ثمناً لحصتك في الدكان » . فسحبت جنيهاتي من درج المكتب في فتور ، ثم ألقيتها بين يديها في صمت . ونثرت هي الجنيهات بين يديها تعدها وأنا أرمقها في سكون ، ثم قالت : « الحمد لله ، هذا شيء كثير » . وعجبت أنا لقولها ، ولكن نفسي اطمأنت حين أحسست بكلماتها تزيح عني عبئاً ثقيلا يمضني ويضجرني ...

وفاضت روح الإيمان والعقيدة على المبلغ الضئيل فلأمه خيراً وبركة ، وفاض نور المسجد على قلبي فنمره فاستحال اليأس القاتل إلى أمل واسع جيّاش ، وانقلب الفتور إلى نشاط يتوثب ، وأحسست بالصحة تسري في عروقي ، وانطوت الأيام فإذا جنيهاتي تصبح دكاناً يفهق بالبضائع من كل صنف ، ورفّت السعادة على داري فأنعمتها بالهدوء والطمأنينة ... ثم ... ثم نسيت ما كان من أخي الأكبر .

أما أخي فظل يدل على بماله وصحته وأولاده حيناً من الزمان ، ثم ضربته العلة وركبه السقام فانهدت قوته وذوى نشاطه . أفكان ذلك من أثر الندم الذي يتأجج بين جوانحه على أن غالني حقي وأنا محدود القوة لا أستطيع أن أدفع أذى ولا أن أرد شراً ؟ أفكان من أثر أكل المال الحرام وهو يتسرب إلى جوفه لظى يتضرم ؟ أفكان من عدل السماء وهو يجازي الشر بالشر ويدفع السيئة بالسيئة ؟ من ذا يدري ؟ ولكنه انطلق يعاب الداءين : داء نفسه وداء جسمه ... وثقلت عليه وطأة المرض فانحط في فراشه لا يبرحه ، وانصرف عن تجارته فأغلق دكانه ، وتسلل المال من بين يديه إلى الدواء والطبيب ، وبدا على وجه زوجه سمات الجزع والقلق — بادئ ذي بدئ — ثم برمت به فهي لا تصغي إلى حديثه إلا في ملل ، ولا تجيب نداءه إلا في ضجر ، ولا تقوم على خدمته إلا في تثاقل .

واختلفت إليه أريد أن أخفف عنه لوعة المرض ، وأن أزيل عنه جفوة الوحدة ، فاستقبلتني زوجه — أول الأمر — في بشر وتلقتني في بشاشة وتحدثت إليّ في سرور ، ثم تراءى لي أنها تطمع في أن تصرفني عن أخي ، وأن تخدعني عن نفسي ، وأن تستلبني من قلبي ، فدفعتها في رفق ونصحتها في لين ، ولكنها كانت فتاة جبلة فيها المكر والدماهنة ، تتوسل إلى رغبات نفسها بأساليب شيطانية فيها الإصرار والعناد . وخشيت أن أغاظ لها القول فتنطلق إلى أخي توسوس له وتوحي إليه بأني أريد أن أعبث بكرامته ، أو أن أسطو على عرضه فتقسمه الصدمة ، وهي قوية عنيفة ، وهو ما يزال يعاني عنت المرض ولأواء العلة .

لشدّ ما آذاني أن أراك — يا أخي — تفقد مالك وصحتك وزوجك في وقت معاً ! ولشدّ ما حزّ في نفسي أن أرى زوجك تحاول أن تفترني عن كرامتي وشرفي ورجولتي لأكون حيواناً يرتع في حيوانيته في بيتك أنت يا أخي !

بالرغم مني — يا أخي — أن أنوى عنك فلا أزورك إلا بين الحين والحين ، وبالرغم مني أن أصانع زوجك اللعوب لأحفظ ودك ... آه ، لو أن لك أذناً تسمع حديثي وتطمئن إلى قولي ! ولكني أوقن بأنك لا تسكن إلا إلى حديث زوجك ، ولا تستعذب إلا كلامها ، ولا تستسيغ إلا خداعها !

ومضت الأيام ، فإذا أخي يخرج إلى الناس يتكفأ في مشيته من الضعف والهزال ، وقد ضربه الإفلاس وركبه الدَّين ، لا يجد من يحنو عليه غيري أنا .. أنا أخوه الذي اغتال ماله وسلبني حق ليشبع رغبات نفسه ورغبات زوجه .

فيا أخي ، إن في الإنسان دوافع ترابية إن سيطرت عليه سمت به عن معاني الإنسانية !

كامل محمود حبيب